غاية ، وهو أشدّ هياجاً إذا جُرحتْ كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته . فإذا اهتاجَ أسرعَ إلى السيف واحتكم إليه ، وبادر شاعره إلى اللسان فسلطه فى شعر فيه الحماسةُ وفيه الهجاء المقذع يصوّر العدو هزيلا والمهاجِمَ ضعيفاً ، ويبعثُ فى نسبه الضعفَ وفى خلقه الصغار وفى شكله الزراية .

ومردّ هذا الخلق عند أكثر الباحثين إلى طبيعة الأرض من فقر وإجداب ، وضيق الأفق بالسكان ، فينتعشُ البؤسُ وتشتد الحاجة ، وتحمدُ الشجاعةُ والوفاء والكرم ، ويذمّ الجبن والخيانة والبخل ، وتتنخل الأنساب ، ويدُور الشاعر الهاجى حول هذه الموضوعات ليصيب مقتلا من خصومه ، ويسرع إلى القوافى والصور فيصبّ غضَبه على الولاة والحكام والأمراء والملوك ، ويتناول المذاهب والأديان والعقائد ، وينتصر لفريق على فريق ، كأنه فى حزب سياسى ، أو فى فرقة دينية ، أو فى دعاوة سياسية واجتماعية ، كصحافة اليوم .

وكان من ذلك كله ديوان فى الهجاء كبير ، برع فيه الشعراء فى القول والبلاغة والفصاحة ، فعرضوا للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق فصوّروها فى خيال صادق أو كاذب ، لا يبالون بما يعترض سبيلهم من سمْعة تتحطم أو كرامة تتهشم أو أرومة تتهدّم ، أو نسب ينهار أو عرض يفضح . فقد كان الهدف النصر على الخصم ليس غير ، يتناولونه من نواحيه فيبرزونه فى شكل مُخز ، ويضعونه موضعَ السخرية والحطة والضَّعة ، فإذا بلغوا من ذلك ما يريدون انتصر هجاؤهم وظهروا على عدوّهم واشتهروا بين الأقوام وارتفعوا إلى ذروة الأدب .

وقد استعرضنا الشعر العربى فى هذا الباب فرأينا أنه على أنواع منه : الهجاء الشخصى يتناول المهجو فى عرضه ، ونسبه ، وخُلقه وخلقته ؛ والهجاء السياسى ، وهو ينال من القبيلة والسلطان والسياسة ؛ والهجاء الدينى وهو يعرض للعقيدة والمذهب والدين ؛ والهجاء الاجتماعى وهو يصف الأخلاق العامة وطبقات الأمة ويرسم انحلالها . ولعلّ هذا التقسيم والتبويب قصير الحدود ضعيف الشمول ، لا يضمّ كلّ ما قيل فى الهجاء . ولكنه قريب إلى أن يصوّر حال الأدب العربى على اختلاف العصور منذ الجاهلية إلى اليوم فى قوالبَ معدودة